

المشرق

اصل الدين فلسفياً

لحضرة الاب الخوري بطرس مبارك مدير الدروس في مدرسة الحكمة العامرة

خطابُ القاه في غرفة القراءة

اذا سرّحنا راند الطّرف في العالم كله وطالعنا اخبار التجوليين في جميع انحاء الارض وبين الشعوب المختلفة نرى جامعاً واحداً يجمع الشعوب الحاضرة على اختلاف طبقاتها ولغاتها وعاداتها اعني بذلك الاقرار والاعتراف بوجود عالم حقيقي غير منظور اسى من العالم الذي نحن فيه وبوجود علاقة متبادلة بين هذين العالمين ثم اذا تصفّعنا تواريخ الامم السالفة التي وطئت الارض قبلنا ثم حصدها يد المنون على الطريق التي نحن سالكوها لرأينا ان ذلك الجامع عنه كان يجمع اجدادنا كما يجمعنا نحن ايضاً

حقيقة واحدة اتفق ويتفق فيها البدو والحضر المصح والمتمدنون الفلاسفة والاميون وفي الجملة فاذا اصغنا سمعاً الى دوي الاعصر القديمة والحاضرة نسمع اصواتاً تتصاعد من كل جهة صوتاً من المشرق صوتاً من المغرب صوتاً من الشمال واليمين وهذه الاصوات تلتئم جميعها وتنضم بصدى واحد وهو وجود الدين في كل آنز واين حتى لا تكاد توجد مدينة او قرية الا وُجد ويوجد فيها معبداً هو شاهد عيان على وجود الدين فيها

وذلك حادث عياني ينادي به ارباب الاديان على اختلاف مذاهبهم ويقر به

العقلون ولا يستطيع الماديين والطبيعيون الى انكاره سبيلاً
 هلم بنا ايها الكرام نبحث بحثاً مدققاً عن السبب الذي دفع العالم باسره الى
 ان يدينوا بدين. وعن العلة الكافية لهذا الاتفاق الغريب على حقيقة ذات اهمية
 كبرى ظير الدين الذي عليه تدور رحي اهم اعمالنا وعنده محط آمالنا
 اعلم ان للجواب عن سبب هذا الاتفاق طريقتين: الاولى تاريخية وضعية ومآلها
 ان الله سبحانه اعطى للانسان الاول مع الوجود معرفة وجود عالم غير منظور واوحى
 اليه اخص حقائق تعلقه بهذا العالم غير المحسوس فتأصل هذا الاعتقاد في الانسان
 الاول وبواسطته انتقل بالتقليد الى افراد ذريته وهكذا الى جميع امم العالم المختلفة
 فهذه الطريقة وان صحيحة المبدأ والنتيجة ليست التي اسلكها في خطاي بل
 توخيت الطريقة الثانية الفلسفية ومآلها على فرض عدم وجود الوحي فهل كان في وسع
 الانسان على ما هو عليه من الادراك والارادة الحرة والنوازع الطبيعية الصحيحة ان
 يتصل الى معرفة وجود مقرر هناء ورغد فوق هذه الارض وادي البكاء والشقاء ووجود
 سلم تصل هذه بتلك ؟ فاجيب نعم. والنتيجة تكون لا بد لراحة العقل من الدين كما
 انه لا بُد لتسكين الجوع من الطعام. ولقد سلك في مجي هذا مسلك لا يلاس العالم
 الفلكي الشهير عندما اراد ان يبين من حالة الارض الحاضرة ما امكن ان تكون
 عليه منذ البدء قبل ان تخرج من جوفها الجبال الشامخة وتكتسي بالازهار النضرة
 والاشجار الخضرة وعلى الله الاتكال ١)

ولقائل ان يقول لسنا الآن في الكنيسة حتى نسمع خطاباً عن الدين. فاجيب:
 ايا ترى هل وُضع الدين لينحصر ضمن جدران الكنيسة ؟ ومع ذلك ليس تجود يد الآ
 بما تجده هذه بضاعتنا فان راقت في اعينكم فلکم ولنا والآ فلنا وحدنا

اذا امعنا النظر في حالة الانسان الحاضرة نراه دائماً قلقاً لا تستقر له حال ولا
 يهدأ له بال ما بقي على ظهر الارض حياً. وكما ان الامواج المتعددة والارواح المختلفة
 تتلاعب بالركب الصغير على سطح البحر ولا تدع ان يقر له قرار كذلك الاشغال
 المتنوعة والعلاقات المتعددة مع ما يتصل بامور المعيشة تتنازع حياة الانسان من جهة

ومن جهة أخرى تتلاعب فيها ارباح الانفعالات والمواطف النفسائية فتارةً يجذبها الحب وأخرى يبعده البغض. اليوم تفرحه الآمال وغداً يحزنه اليأس. وبالأجمال زى الانسان من المهد الى اللحد تتقاسم اوقاته وتستغرق ساعات حياته حربان حرب من الداخل وحرب من الخارج. ومجموع هذه العوامل الداخلية والخارجية يدعوها العلماء العالم الاختباري. لان هذا المجموع موضع اختبار الانسان ومكول لخدمته اديئاً ومادياً فيسرح فيه المرء ويرح على الرحب والسعة. على ان هذا العالم الاختباري مع اتساعه واختلاف مواضعه يضيق بالانسان فلا يملأ فراغ قلبه ولا يشبع امياله بل تراه غالباً يلتفت يئمة ويسرة كأن له وراء هذا العالم اغراضاً شتى لا يجدها فيه ومثله مثل العصفور المسجون في القفص. نعم يجد هناك مأكله ومشربه مهيئاً امامه ولكن تموزه الحرية التي بدونها لا يهنأ له عيش البتة. يتقلب الانسان في خيرات هذا العالم ولكن دعاك الله تغفل الى غور قلبه تجد هناك فراغاً عظيماً لا تملأه خيرات الدنيا بأسرها ولهذا تسمو مقاصده الى العلى ويطلب راحته من السماء. فلو فرض الحال ايها الكرام ولقي الانسان على الارض ما يملأ وهداة قلبه الواسعة ويشبع شهواته كلها ويملكه الراحة في هذه الحياة الدنيا لما وجد الدين في الدنيا بته وما رفع الانسان نظره نحو العلى وما كنتم ترون هذه الهياكل المرتفعة ولا هذه المعابد المزينة وآيان توصل الانسان بواسطة اكتشافاته وتقدمه في المعارف والفنون الى ان يخرج من بواطن الارض ما يكتفيه مؤنة لصد عوزه المادي والادبي ولا إشباع عقله وقلبه فذلك اليوم يكون اعظم يوم في تاريخ البشرية ويبقى ذكره مثل اهرام مصر على مر الأيام والدهور لانه يكون الحد الفاصل بين الانسان والدين. في ذلك اليوم العظيم يطرق الانسان ولا يعود يرفع طرفه نحو العلى فتدق اجواس الحزن على وفاة الدين في اربعة اقطار المسكونة ويدفن الانسان كل دين وكل علاقة مع الله تحت انقاض المعابد كلها. ولكن تشجعوا ولا تضطرب قلوبكم ايها الكرام لان ذلك اليوم الذي فيه يجد ابن آدم على الارض ما يجيب على سوالات عقله ومطالب قلبه الذي فيه تشبع شهواته من خيرات الارض كما يشبع الهميم من اشباب الفلا ويذهب فينام خالي البال ناعمه ما بزغ ولن يبرز فجره على بني البشر ما خفق قلب وجال فكر

دعوا الملحدين والعقليين والماديين يترجون الحال دعوهم في غيهم يعمهون ويعاقون

أما لهم بحال من عنكبوت دعوهم يركضون وراء أخيلتهم وإذا سمعتم يوماً أن شمس ذلك النهار أخذت ترسل أشعتها إلى العالم من فوق قمم الجبال فلا تصدقوا بل قولوا لنفوسكم أن هؤلاء يسعدون بالحلم ويروضون من الحقيقة بالباطل ومن الماء العذب بالسراب. ولماذا شمس ذلك اليوم لن تشرق أبداً. أولاً : لأن العقل يطلب جواباً صريحاً من العالم الاختباري عن ثلاثة أسئلة تقف في وجهه في كل آن ومكان كلها اختلى بنفسه كأنها اشباح مخيفة ولا يجد لها جواباً مقنعاً ألا وهي : من اين اتيتُ وإلى اين اذهب وما هي الطريق التي يجب ان اسلكها كي احصل على غايتي . فهذه الاسئلة تنهش عقل الانسان نهش الذئاب الجائعة وتسلب راحته . وثانياً : لأن القلب يطلب السعادة الكاملة ولا يجد في عالم الكون سوى اشياء باطلة كاذبة واليكم بيان ذلك مرتباً مفصلاً

(السؤال الأول) من اين اتيت ؟ سؤال مهم مقلق

اما انه (سؤال مهم) فلا تآ نرى الناس يبذلون قصارى الجهد في سبيل انتسابهم الى اجداد شرفاء قد عُرف لهم مجد البأس او مجد العلم او مجد الرتب العالية ويحتفظون بكل اثر يوثق شرف اصلهم وكرامة محتدهم ويقتخرون بذلك على من سواهم . وما ذلك سوى نتيجة علمهم ان سمو الغاية مترتب على شرف الاصل . ألا ترى ان المعادن الكريمة كالالاس والرزد ترين تيجان الملوك ولا يُتخذ الخسيس منها كالحديد والنحاس ألا للاعمال المتبدلة ؟

اماً انه (سؤال مقلق) الحواطر يتبع الانسان العاقل اينما حلّ وحيثما توجه عالمًا كان او جاهلاً . فلأن الانسان لا يرى حوله سوى علل ومعلولات فلا مسبب بلا سبب ولا معلول بلا علة . يرى لمعان البرق يعقبه قصيف الرعد والمطر ينشأ عن تلبّد الغيوم فلا دخان بلا نار ولا حركة بلا محرّك ولا ابن بلا اب ولا محبوب بلا محبّ ولا حصاد بلا زرع وعلى هذا النمط ينتقل الانسان مدفوعاً بقوة المقايسة وبالميل الغريزي الذي يدفعه طبعاً الى البحث عن العلة عند ما يرى المعلول . الى ان يستفيق نفسه قائلاً : وانا اشرف المخلوقات الارضية القابض على زمام منافعها تُرى من اين اتيت . فلا يرى مجيباً وحينئذ يضطرب عقله ويقلق باله من هذا السكوت الرائع بالنظر اليه وحده . يسأل الرياح الارباع يسأل الكواكب والنجوم يسأل شرائع الكون المادية والادبية فلا يجد مجيباً على سؤاله . نعم

أنا تأتي من حيث لا ندري ومن العيب والحطأ ان نطلب الجواب من نواميس التناسل . فهذه وان اجابت عن بعض ما نرغب الجواب عنه فانها تقصر عندما تصل الى الحلقة الاخيرة من هذه السلسلة . لانه اذا توصلنا بواسطة التاريخ والتناسل الى ان نضمد الى ابونا الاولين فالمسألة نفسها ترجع بقوة اعظم . من اين اتى ابوانا الاولان ؟ هنا نقف معارفنا الاكيدة . هنا ينقطع جبل مداركنا ويستولي على بصيرتنا الطبيعية ظلام حالك فنبتدى نخط خط العشواء .

وكفناك شاهداً على ما يأخذ العقل من الارتباك لما يرى من المذاهب في حل هذا المشكل . ومتى تضاربت اقوال الاطباء في شأن المريض فذلك دليل على ان المرض عضال وحياة العليل في خطر . وأما تلك المذاهب فليس من ورا . عذرها الأاضاعة الوقت على غير طائل . ومن الآراء الفاتحة ادعاء جماعة من العلماء ان اصل الانسان من كمال حدث في الطبيعة على ممر السنين والدهور او هو حدث اوجده الاتفاق . اذ كل ذلك ينبذه العقل فلو كان في وسع سنة الارتقاء العبياء ان تكون علة لمعلول كهذا عجيب في دقة تركيبه الطبيعي وكامل في صفاته الاديية نظير الانسان لعبدتها واتخذتها لي الها . ولو صح ان الاتفاق آلف اعضاء الانسان ونظمها ونم باسراة الى الدماغ البشري فجاء على ما هو عليه من احكام الترتيب مع تعدد الاعمال المتباينة لسجدت له وقلت له : ايها الرب ربنا ما اعجب اسمك . ولكن هيات هيات ان يصح النام فهل يخرج من العوسج تين او من الشوك عنب ؟ فن اين لسنة عبياء ان توجد الانسان صاحب البصيرة والوقادة والفكر الثاقب . ومن اين لعدم النظام ان يكون علة لثال النظام وانموذج الترتيب

وفضلاً عن ذلك فان الانسان كائن مؤلف من نفس وجسد واذا كان العلم والعالم يميزان عن بيان اصل الجسد على ما تقدم فها عن بيان اصل النفس الروحية اعجز . اذ من البديهي ان لا يملك الا المالك فمن لا يملك عشرة غروش فكيف يستطيع ان يبطي الفأ ومن ثم يبقى سؤال الانسان عن اصله بلا جواب شاف . وكيف يستريح الانسان والحالة هذه واصعب حالات النفس احتمالاً حالة التردد والريب . وكيف ينال خلي البال من يهجر اثناء الليل واطراف النهار في البحث عن اصول الاشياء التي حوله . كيف يسكن ضميره وهو الذي يتوسد الكتب ليطلع على اخبار السلف ويقتحم اخطار

السفر ليعلم ما في القطب وهلمَّ جرأ. أَلعلَّ هذه الاشياء اهمَّ عندهُ من نفسه ؟
فلا غرو اذن ان بقي الانسان قلقاً مهما تكاثرت عليه الاموال وتلونت المذات

(السؤال الثاني) من اين اتيت لا ادري فهل اعلم الى اين اذهب . ان المسافر يسأل أولاً الى اين يذهب كي يسير نحو الغرض لئلا يطيل السير باطلاً وتفوته الغاية هكذا الانسان المسافر على وجه الارض يسأل العلوم المختلفة يسأل النجوم السيّارة والجبال الواسخة والابحار الواسعة الى اين اذهب الى اين اذهب . وما من مجيب . نعم ايها الكرام حسب ظواهر الامر نذهب جميعاً الى اللحد وكما ان المياه المتساقطة على الجبال تنحدر طبعاً الى البحر حيث لا تعود تُعرف هكذا نحن فان قوّة لا تُردّ ولا تُدفع تجرّنا قسراً الى القبر هناك تتساوى الاحوال وتنتهي الآمال هناك ينحلّ جسدنا هذا ويرجع كل عنصر منه الى اصله . ولكن ما عساهُ يلمُّ بالنفس التي تفوق كلّ ما هو تحت الشمس شرقاً وجالاً وبها . هل تموت مع الجسد ؟ وما عساهُ يحلّ بالنور الطبيعي نور العقل الذي يضيئ امامنا كصباحٍ يَبْرِ في طريق هذه الحياة المظلمة ؟ والى اين منتهى ذاك الفكر الثاقب الذي يسابق البرق ويفوق النسيم رقةً واعتدالاً ؟ وهل يضمحلّ ذلك البحر العجّاج ببحر العواطف الداخلية والآلام النفسانية التي نشعر بها طيَّ الضلوع ؟ سَلوا الجَنَّةَ عن النفس . سَلوا النفس بعد انفصالها من الجسد . اسألوا علماء الطبيعة . اسألوا الفلاسفة . هل غوت كلنا وهل ميتة واحدة للانسان وللبيم ؟ وهل من حياة بعد الموت فالجواب بعد البحث ينحصر في هذه الكلمة : لا نعلم العلم الشافي . وعليه فان هذا السؤال « الى اين اذهب » يبقى دائماً نصب عيني وينخر فؤادي كما ينخر السوس اصول الشجر

على انه وان سكّ العلم والعالم عن تبيان حالة النفس بعد الموت فالسكوت عن الجواب ليس دليلاً على العدم اذ كم وكَم من القوى الطبيعية بقيت ساكنة مدفونة في اجرام الارض حتى انت يدٌ حاذقة فاخرجتها الى العيان ؟ فدونكم الكهربائية مثلاً التي تصنع العجائب في ايامنا أما بقيت مطمورة في الاجرام الارضية حتى اخرجها منها كُلفاني وقُلتا . فالسكوت اذاً ليس هو العدم . ولهذا قال شاتوبريان : الدين زهرةٌ منبتها القبر وليس للقبر معنى بدون الدين

(السؤال الثالث) من اين اتيت لا ادري الى اين اذهب لا اعلم فهل لي من نور

ينير قديمي كي لا اعثر في طريق هذه الحياة ؟ وهل من مرشد يهديني الى الصراط المستقيم متى اعتسفت عنه ؟ نعم يوجد نور وهو الضمير (وهنا اختصر الكلام تفادياً من الملل) وكل يرى ضوءه داخل جنانه ويقرأ من خلاله هذه الكلمات : لا تقتل لا تزن لا تسرق جد عن الشر واصنع الخير . ولنا دليل عليه لا يُرد وهو ان كل من قصد عمل الشرفانه يتطلب الظلمة والحقاء . وعمل الخير يطلبون النور . النسر والباز يملكان الجو مدة النهار واما البوم والحفّاش فسلطانهما في الليل . الايل والحمل يرتعان في المروج الحنّصة بعين الشمس واما الذئب والضبع فيسطوان تحت جنح الليل

على اننا ايها الكرام . وان كنّا نشعر بوخر الضمير ووصوته يدوي غالباً في اعماق قلوبنا فمع ذلك لا ندري من اين يأتي ذلك الصوت ومن هو الصارخ وهذه الشريعة الطبيعية من سنّها علينا ومن ينتقم لها او يجازي عنها ان خيراً فخيئاً وان شراً فشرّاً اهو موجود في هذا العالم ام في عالم آخر لا نعلم . نعم قد ظنّ العجم ان ذلك القاضي العادل هو « ميثرا » اي الشمس لانها ترى بيننا العظيمة كل ما يحدث على الارض . اما الهنود فزعموا انّ فاروتا اي الجو هو المنتقم لصراخ الضمير . والماديون اختصروا الامر بانكار مهماز الضمير وبالنتيجة وجود قاضٍ له . غير ان كل ذلك قد سقط اليوم امام العلم الحاضر . رأيت كيف ان العلم والعالم الاختباري يعجزان عن الجواب على اسئلة العقل فلننظرن الآن اذا كان في وسعها ان يجيبا على مطالب القلب البشري لكن « تجري الرياح بما لا تشتهي السفن »

لا يند عنكم ان ليس من شي . وان خطيراً يلهي خواطر الانسان عن التفكير الدائم بالسعادة ولا من نوازل وان تعاظمت . ولا من مصائب وان تلونت تثبط الانسان عن انتجاع مناجع الآمال وتعليل النفس ابداً بجياة اهنأ واسى من هذه الحياة الدنيا اليها يكون مرجع اعماله ومنتهى آماله ما زال حياً على وجه الارض سواء كن عالماً او جاهلاً غنياً او فقيراً . ولهذا ترون الانسان يتهافت على خيرات الدنيا تهافت الفراش على الشهاب ظناً منه انه يسد بها جوعه ويروي عطشه او يجد فيها ما تروح اليه نفسه لكنه وا اسفاً يرجع دائماً بصفقة خاسرة . ومما يقضي على كل عاقل بالعجب العجيب انه كلما ازداد المرء انقياداً لنفسه وتطوّر في ملذات الارض وكسب المال وتحصيل الشرف والسعي وراء الشهوات ازداد شوقاً عظيماً الى السعادة وربة في

طلبها . ان الاسد يتربص في عرينه راصداً فريسته حتى اذا ما هصرها وحصل طعامه سكن جأشه وبات خلياً مستريحاً اماً الانسان فانه يترامى على المذات كالايال الظمان الى المياه العذبة فيشرب كؤوسها حتى آخر نقطة ومع ذلك فلا يروي غليله بل يزداد عطشاً وشوقاً الى السعادة فهو اشبه شيء بالنار التي تزداد سعيراً كلما ازدادت وقوداً وقصارى القول زى الانسان من ابتداء حياته الى نهايتها لا يألو جهداً من السعي وراء خير لا يدركه

انظروا البشر يقرون اديم الارض ناشدين السعادة منذ ثمانين قرناً . فسألوهم علمهم وجدوها . اسألوا الاموات حيث السرو شاخ برأسه نحو العلى من فوق مقابر تضمنت فخمة الانسان اسألوا الاحياء كباراً وصغاراً اغنياء وقراء علماء وجهالاً اسألوهم علمهم وجدوا ما تشاق اليه قلوبهم . فن المقابر والقصور من المدن والقرى من السماء والارض يرن في اذانكم صوت ذلك الملك الذي قال عن نفسه : « كل ما ابتغته عيني لم ادعه يفتها ولا منعت قلبي من شيء . باطلة الاباطيل وكل شيء . باطل » فضلاً عن ذلك فان الحيرات العالمية كاذبة تغشي بصرتنا بهرجتها الخارجية فنظن ان السعادة بالمجد او بالمال او بالمذات وعندما يبين لنا اننا قبضنا عليها زى اننا كالباقضين على الهواء نفتح الكف فلا نجد شيئاً نسعد بالحلم ونحزن عند اليقظة ونحن كما نحن مانتون معذبون

٢

هذه حالة الانسان ادركها العقل من اول وهلة ولم يتوصل الى حل عقبتها ومعرفة اسبابها فحار في امره وهتف نظير قولته وهو على فراش الموت : « النور النور » ولكن من اين النور بين قرائر الموت والشتاء . واصبح كمن اصابته حمى شديدة يتململ على فراشه ويتقلب ظهراً لبطن علة يجد ما يطفى احتراقه فلا يجد الى ذلك سبيلاً فصاح من اعماق قلبه مخاطباً كل ما حوله نظير فيلوككتات لما شكا امره الى الصخور المشاوعة له في جزيرته : « اعدل ان اكون انا وحدي عرضة للعذاب والآلام والموت . اعدل ان ملحة العالم يكون اقل حظاً من طير السماء وذنب القاب . اعدل ان البعوضة الصغيرة ودودة الصخر الحقيرة تجدان قوتها وراحتها والانسان مالك العالم قتل كريشة في هب الريح تتنازع حوامل الكدر فلا تبقى عليه ولا تدر . وانت ايتها الطبيعة يا من اظهرت ذاتك اماً حنونة لجميع المخلوقات صنعت العصفور للطيران فكوت له

جناحين واجت له الجوّ مجالاً. اعطيت ارض لبنان العالي صلابة تسخر بقوة العواصف العظيمة واوليت زنبق الوادي صلابةً وليناً لمقاومة النسيم الساري فلماذا انت تجت حق الانسان وحده. خلقت له عقلاً ثاقباً وتركته يهيم في وادي الضلال لا يعلم من اين اتى والى اين يذهب. اعطيته قلباً شعوراً اوسع من الخيرات الدنيوية فامسى كالصنوبر الوحيد على الاشجار يقتش عما يعوزة فلا يجد. اوّاه ايها الكرام كم هو مؤثر دوري وصراخ اولئك الفلاسفة الذين لم يرضوا سوى الاختبار هادياً. وكم هي محزنة زفريات قلوب اولئك الشعراء الذين لم يعرفوا في غير خيرات الارض سعادة. وكنت اود ان لا اسمعكم منها شيئاً لولا ضرورتها لكمال موضوع كلامي

قال جوفروا الفيلسوف الفرنساوي بعد ان نبذ الدين ظهرياً: « من اين ياتي السلام اذا كن لا يعلم الانسان من اين اتى والى اين يذهب. وكيف يهتأ العيش متى كان كل ما هو حولنا اسراراً والغازاً. فن طلب السلام وهو مجهول اين مسيره فلقد طلب المحال »

وقال مان دي بيران بعد ان ذاق مرارة الكفر: « انما اعظم احسان الدين للبشر انقاذهم من حالة الريب التي هي سمٌ زعاف للمعيشة وآفة اخترقها العقل لذاه ». والشاعر جورج فارسي اعترف علناً « انه نهك قواه واراق ماء حياته منذ استأصل من قلبه عاطفتي الايمان والمحبة ». وادمون شرّر الشاعر الالماني قال لاحد اصحابه: « ان الكفر قلل عدد الخالسين الى السماء ولكنه كثر عدد الخزانى والاشقياء على الارض لان الدين هو طبيعي للانسان ». وغير هؤلاء. كثيرون من فلاسفة وشعراء وكتبه الا عصر الحوالي قد افصحوا عن ارتباك العقل واضطرابه ما دام يبدأ عن الدين. فقم ايها العقل وقف عند شاطئ بحر هذا العالم وانهم النظر فيه عليك تجد وراءه ضائلك. فينتشع ظلام الجهل وتتبدد عن ممالكك غيوم الكآبة

ان كريستوف كولومب صاحب العلم الراسخ والفضيلة السامية والفضل العميم لما انتج من كروية الارض وقياسها انه لا بد من وجود عالم آخر غير الارض المعروفة وقتئذ كان يذهب غالباً الى شواطئ البحر ويرمي بنظريه الى تلك المهول الزرقاء وقد تصاعدت من فواده زفريات الشوق الى تلك الديار الجديدة التي لم يكن يراها

الآ بعين العقل فيوماً ما وجد على الشاطئ اعشاباً لم تكن معروفة في العالم القديم فكانت له بمثابة كتاب مفتوح أرسل اليه من الارض التي كان مزعمًا ان يفتحها فشد مسافراً بين هجمات الحاسط وعند ما لمح عن بعد تلك الاراضي الجديدة هتف وكل من معه بفرح لا يوصف: «هوذا الارض هوذا الارض»

هكذا صنع العقل البشري في اكتشافه العالم غير المنظور . بعد ان قاس اطراف هذا العالم الارضي والمادي وعرف انه يقصر عن تفسير وجوده الذاتي لكونه حدثاً عارضاً من الممكن ان لا يوجد انتج انه لا بد للعالم من موجد خارجي عنه اذلي واجب الوجود في ذاته والأ لزم ان يوجد هذا العالم قبل وجوده اذ ترتب عليه ان يعمل قبل ان يوجد وذلك ضرب من الحال . ونهض عندئذ نهضة الابن الشاطر قصد التخلص من الجوع والعري ووقف على شاطئ بحر هذا العالم الاختباري وحدق ببصره فلاح له من خلال الموجودات انه لا توجد غاية بلا وسيلة ولا وسيلة بدون غاية ولا عضو بدون عمل ولا عمل بدون موضوع يوافقه ولا عين بلا الوان ولا صوت بلا آذان ولا طير بلا جناح ولا اسد بلا انايب ومخالب وتلك سنة طبيعية لا تُنسخ . وحينئذ اشرقت عليه من خلال المقايسة المنطقية هذه الحقيقة العامة وهي لا بد للنوازح الصحيحة ان تصل الى ما تنزع اليه . وعليه فلو لم توجد السعادة حقيقة لما تمكّن في اعماق قلبي الحي ذلك الميل الذي لا يُفَلَب نحو الحصول عليها . فمن الضرورة اذاً ان توجد في مكان ما ولا بُد من ان احصل عليها عاجلاً او آجلاً لأن من اوجدني عادل وسن الطبيعة احكام عامة لا يُفَلَت منها ولا تقبل الاستثناء . والحال اني لا اجد لها على الارض فاخذ لا بُد من وجود عالم آخر غير العالم المنظور اجد فيه ما يشني أوامي ويسد وهاد فوادي العميقة . اذ لا بُد للنوازح الصحيحة ان تصل الى ما تنزع اليه . وعلى هذه المنوال عرف ايضاً انه لا بد من الوصول الى جواب مقنع على سوالات عقله الصوابية واذا كان لا يتسنى له ذلك في هذه الحياة الدنيا كما ذكرنا فلا بد من حياة اخرى حيث يعلم من اين اتى والى اين يذهب ومن ينتقم لصراخ ضميده او يجازيه على ما يفعله من الصلاح فملى سلم هذه الحقائق صعد العقل وحام مثل النسر وحدق ببصره الحاد الى ما فوق واخذ يحول في فسحات ذلك الجو الصافي جولان الهائم وما ارتفع الحجاب وظهرت امام بصره تلك الفسحات العظيمة وانقشعت تلك الغيوم المتلبدة عن ذلك العالم الجديد

حتى صعدت من صميم قلب الانسان ترانيم الفرح والابتهاج فهتف مثل مريم اخت موسى عند خروج بني اسرائيل من بحر الاحمر ومن عبودية المصريين « الرب عزيز ونسيحي قد كان لي خلاصاً » (١) فتدقت عليه الانوار واكتشفته من كل جهة وظهرت له اسرار وجوده وعرف ان القادر على كل شيء قد ابدعه من العدم الى الوجود وان اليه مرجع اعماله وغاية آماله وهو مشتري ضميمه وموضوع سعادته القصوى. فلى هذا القياس المنطقي كان العقل ارتفع رويداً متدرجاً بالحقائق لو لم يوجد الدين يكفيه مؤنته ويهديه الى سواء السبيل ولو افترضنا عدم الدين حقيقة كان العقل قد اخترعه على النمط المذكور لان الدين ضروري لراحة العقل كما ان القوت ضروري لراحة الجائع ولهذا نرى الناس قد اتفقوا على الدين كاتفاقهم على ضروريات الجسد كالاكل والملبس والدؤد عن العرض وحب الوطن وهلم جرا

ومالي والاسهاب في حقيقة وجود الدين امام كرام رضعوا مبادئه مع الحليب فنشأوا عليه . يفضلون الدين على كل خيرات هذا العالم ويفتخرون في انهم حفظوا وديعة الايمان وصانوها من كل شائبة الضلال . لا زلنا وائياكم محافظين على هذا الكنز الثمين الذي فيه وحده سعادة المرء وخلاص الشعوب

